الأحياء

للإمام الغزالى

للأستاذ محمد خلف الله أحمد : عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

من المؤلفين المسلمين الذين يجلهم الشرق والغرب ، ويعرف فضلهم المسلم وغير المسلم من الباحثين ويسجل لهم التاريخ أثرهم الخالد فى الحضارة ، الامام أبو حامد الغزالى ، الذى نشأ فى خراسان فى القرن الخامس الهجرى ، ودرس فى المدرسة النظامية ببغداد ، وطوف فى سوريا وفلسطين والحجاز ومصر ، ومات فى بلده سنة ٥٠٥ من الهجرة مخلفاً وراءه ثروة علمية ضخمة ، أودعها مائة وعشرين من الكتب ، لاتزال وستظل — محل عناية العلماء والدارسين .

شغل هذا العالم الإسلامى الممتاز أذهان العلماء فى كثير من البلاد ، فألف فيه — أو ترجم عنه — الانجليزى والأمريكى ، والألمانى والهولندى والإيرانى والمصرى وغيرهم ، وكتبت عنه المقالات فى الموسوعات ، وقدمت البحوث للمؤتمرات الدولية ، وعقدت الموازنات بين آرائه وآراء المشهورين من الفلاسفة والمتصوفة والقديسين .

فهو — إذن — شخصية عالمية بكل معانى الكلمة ، وله مكانة بين الخالدين من بناة المعرفة الإنسانية وللحضارة الإسلامية أن تعتز به وتعد تراثه العلمى بين أمجادها الرفيعة الفاخرة .

والصفة المميزة للغزالى أنه لم يكن فقيها فحسب ، ولا مجرد عالم بالتصوف أو الفلسفة أو الأخلاق أو الأصول أو المنطق أو التربية ، بل وفق بين كل أولئك فى نظام فكرى منسجم العناصر متماسك الحلقات ، جامع بين الظاهر والباطن

والشريعة والحقيقة ، والعلم والعمل والفيوض الكسبية واللدنية، وقد أودع هذا النظام الشامل كتابا من كتبه ، قليل النظير فى بابه،هو كتابه « إحياء علوم الدين»وهو موضوع حديثنا.

ولن نحاول فى هذا الحديث أن نلخص مادة الكتاب ، فهو فى الحقيقة دائرة معارف فى الدين الإسلامى وأسرار تشريعه، ولكننا سنقصر أنفسنا على إيضاح المقاصد التى رمى المؤلف إلى أبرازها فى كتابه . وبيان الطريق إلى الإفادة من هذا الكتاب فيما نحاول من تحقيق الحياة الإسلامية الفاضلة .

والظاهر أن طواف الغزالى فى البلاد الإسلامية المختلفة فى عصره أطلعه على الكثير من أحوالها ، وبصره بوجود النقص فى حياة مجتمعاتنا : من قصور عن إدراك أسرار الدين ، وتقصير فى اتباع تعاليمه والتخلق بمثله وآدابه : فقد شغل أهل العلم إذ ذاك بالقشور عن اللباب ، وأصبح العلم عند الكثير منهم براعة فى فتوى . تستعين بها القضاة ، أو مهارة فى جدل يتذرع بها طالب المباهاة إلى الغلبة ، أو سجعاً مزخرفا يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، وقنع الناس من العبادات برسومها الظاهرة ، وأهملوا ماحض عليه الدين من آداب النفس وأصول الإجتماع ، لذلك كان لا بد من كتاب شامل يحيي علوم الدين . ويعيد تقريرها ويصف أدواء القلوب والأرواح ويلتمس لها الدواء،ويضع بين يدى كل مسلم منهجاً لحياة إسلامية فاضلة يتحقق فيها خلوص العقيدة وصحة المعرفة وصلاح العمل ، ومن أولى بتأليف هذا الكتاب من عالم درس الفقه الاسلامى وأصوله دراسة مستفيضة ، وحذق قضايا الفلسفة التى بلغت نضجها إذ ذاك على يد الفرابى وابن سينا وابن رشد ، وأحاط بالتصوف علماً وعملا وصفى نفسه بالزهد فى الدنيا فترة من حياته استعمل فيها الشك وسيلة إلى اليقين والتأمل طريقاً إلى المعرفة الربانية .

على هذا الأساس تحددت مقاصد الغزالى فى كتابه « الأحياء»: فتمثل المعرفة الدينية التى يستقيم بها نظام الحياة فى أربعة أرباع ربع

العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات. وهو يصدر ببحث العلم الذى جعل الإسلام طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة فيسوق من الآيات والأحاديث وأقوال السلف ما ينبىء عن فضل العلماء، من مثل قوله تعالى:

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «العلماء ورثة الأنبياء»، وقول ابن عباس رضى الله عنه: خير سليمان ابن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك، فأختار العلم فأعطى المال والملك معه».

والغزالى لا يكتفى فى إثبات فضيلة العلم والتعلم والتعليم بإيراد النصوص، بل يناقش الموضوع مناقشة عقلية فيبين أن العلم فاضل لأنه لذيذ فى ذاته، وأنه فاضل لكونه وسيلة لصلاح الدنيا وسعادة الآخرة، والعلوم كلها مطلوبة لهذا الغرض، سواء منها ما كان ميدانه الحرف والصناعة، وما كان ميدانه سياسة الجماعة وتهذيب النفوس، وما كان ميدانه الفقه بأصول العقيدة وشرائع العبادة، ويفيض المؤلف هنا أفاضة نافعة فى آداب التعلم والتعليم، وفى مضار التعاليم والرياء والجدل وفى بيان شرف العقل وحقيقته وتفاوت الناس فيه.

أما العقائد فقد أفاض الغزالى فى قواعدها وأسرارها إفاضة ملهمة فجلى عقيدة التوحيد، وما تتضمن من تنزيه الله فى ذاته وأفعاله والتأمل فى محاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، وتكشف مدلول الإقرار برسالة النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم، وتصديقه فى جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة ونصح أن تقدم هذه العقيدة إلى الصبى فى أول نشأته ليحفظها حفظاً، ثم يتدرج مع نمو عقله وسنه من الحفظ إلى الفهم، ثم الإعتقاد والتصديق، فإن من فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه فى أول نشوة للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان.

وانتقل الغزالى إلى الطهارة — التى هى مقدمة الصلاة — فبين أن لها أربع مراتب: الأولى تطهير

الظاهر عن الأحداث وعن الفضلات، والثانية تطهير الجوار عن الجرائم والآثام، والثالثة تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوته، والرابعة تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهذه طهارة الأنبياء والصديقين، وهذا التقسيم نموذج من طريقة الغزالى فى معالجة الأوضاع والشعائر الدينية، فهو يبدؤها من الظاهر، ثم يسير بها تدريجياً إلى الباطن، ناقلا قارئه معه — فى لطف وبراعة — من ميدان الفقة إلى ميدان التصوف

وعلى هذا النظام يسير مؤلفنا فى أبواب الصلاة والصيام والزكاة والحج والدعاء وتلاوة القرآن، معطيا الضرورى من الأحكام الفقهية، دون خوض فى التفاصيل موجها نظر المسلم إلى ما فى هذه الأبواب من رياضة النفس ومعارج القرب إلى الله.

وفى الربع الثانى من الكتاب — وهو ربع العادات — يعطينا الغزالى صورة من الآداب والسنن الإجتماعية التى ينبغى أن تسود فى المجتمع المسلم لتستقيم حياته على المنهج العام الذى رسمه الإسلام. وهذه فيما أعلم أو فى صورة فى الموضوع يمكن أن نظفر بها فى أدبنا القومى: فهى تتناول آداب الأكل والزيارة والضيافة، وآداب الزواج وما يتصل به من حسن المعاشرة وحقوق الزوجية ثم آداب الكسب والمعاش والمعاملات بين الناس والحرص على مراعاة حدود الله فى الحلال والحرام وتنظيم العلاقة بين الرعية والراعى، وآداب الألفة والصحبة بين الناس وحقوق المسلم على أخيه من رحم وجوار ونصح وغيرها. ويتصل بهذا الباب موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو موضوع ذو أهمية خاصة فى الاجتماع الاسلامى.

أما الربعان الثانى والثالث — وقد سماهما الغزالى ربع المهلكات وربع المنجيات — فهما ينصبان على الحياة الخلقية والنفسية والروحية. وفيهما تتجلى مقدرة الغزالى على أن يقرب هذه الميادين لأوساط الناس وينقلهم معه إلى تلك الآفاق التى يدور الحديث فيها عن أحوال النفس والروح والقلب

والعقل ، والخلق الحسن والخلق السيء ، ورياضة النفس ومعالجة الأمراض التي تعرض لها : من أثر الشهوات وآفات اللسان وحدة الانفعالات وجمع الرغبات والوقوع في المعاصي ومحاولة الاقلاع عنها بالتوبة . ويتدرج الغزالي من هذا إلى المقامات العليا من الصبر والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل ، ثم المحبة والشوق والأنس والرضى ، ويقف وقفة خاصة عند النية والاخلاص والصدق وأثرها في نظام الحياة .

هذه نظرة سريعة إلى مقاصد كتاب الأحياء للغزالي وهي أشبه بنظرة الطائر الذي يمر سريعاً فوق مساحة معمورة من الأرض ، فلا يلمح منها الا أبراجها وقممها العالية ولا تبدو له رياضها وأنهارها إلا كخطوط خضراء أو بيضاء . .

والحقيقة أن كتاب الغزالي في مجلداته الضخمة كنز من كنوز الثقافة الاسلامية . ومصدر مهم من مصادر التربية والأخلاق في حياتنا القومية وواجبنا نحوه هو واجبنا نحو أمثاله من الكتب العربية الكبرى ، التي تعرضنا لها في هذه السلسلة من الأحاديث ذلك أنها في حاجة إلى أن تعرض عرضاً جديداً على هذا الشباب المسلم ، يبسط فيه أسلوبها ، وتنظم مادتها ، وتحذف منها الإطالات غير الضرورية ، وتناقش آراؤها في ضوء الاجتماع الحديث ومهمتنا في « الأحياء » ستكون أبسط منها في غيره ، ذلك أنه قريب الأسلوب ، متصل إتصالا مباشرا بنواحي حياتنا الفردية والإجتماعية التي نحياها كل يوم ، ونحس آثارها في عباداتنا ومعاملاتنا ونوازعنا النفسية والخلقية .

محمد خلف الله

* * * *

الخليفة وابن طاووس

روى مالك بن أنس رضى الله عنه قال :

بعث إلىَّ أبو جعفر المنصور والى ابن طاووس . فدخلنا عليه وهو جالس على فرش قد نضدت له، وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلادون بأيديهم السيوف لضرب رقاب الناس ، فأومأ إلينا بالجلوس ، وأطرق عنا طويلا ثم التفت إلى ابن طاووس ، فقال له : حدثنى عن أبيك . ؟

قال : نعم . سمعت أبى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل عليه الجور فى عدله » .

قال مالك : فضممت ثيابى مخافة أن يملأنى دمه :

ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عظنى يا ابن طاووس :

قال : نعم ، أما سمعت الله يقول : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ـ إلى قوله ـ الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد »

قال مالك : فضممت ثيابى مخافة أن يملأنى دمه . فأمسك المنصور ساعة قال : يا ابن طاووس ناولنى الدواة .

فأمسك ابن طاووس ، ولم يناولها إياه وهى فى يده

قال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟

قال : أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها

فلما سمع المنصور ذلك قال : قوما عنى .

قال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغى .

قال مالك : فما زلت أعرف بعدها لابن طاووس فضله .

تلك شجاعة الصوفية فى الحق ، وهم يواجهون أعظم ملوك الأرض بأسا وملكا .